Soroud (10) (2026) : 173 - 194

al-naqd al-adabī wa-l-istimdād min al-ʿulūm al-insāniyya al-dirāsa al-akādīmiyya fī l-naqd al-maġribī namūḏaǧan

Literary criticism and its drawing from the humanities An academic study of Moroccan criticism as a model

النقد الأدبي والاستمداد من العلوم الإنسانية الدراسة الأكاديمية في النقد المغربي نموذجا

ميلود عرنيبة
دكتوراه في النقد الأدبي
الكلية متعددة التخصصات بأسفي

Abstract: This research seeks to examine the relationship between literary criticism and the humanities, focusing on the relevance, limitations, and implications of this relationship. It does so through two academic studies by Moroccan critics: Hamid Lahmdani's engagement with sociology and Hassan Al-Moudan's with psychology. The aim is to understand how each critic approached this relationship, the extent to which they benefited from the disciplines they drew upon, the conscious nature of their engagement, and the degree to which this approach proved productive and beneficial in the development of literary criticism. Our hypothesis is that the experience of these two critics in utilizing the humanities is a distinctive one, opening new horizons for Moroccan literary criticism and contributing to its distinction and prominent presence in the Arab world.

Keywords: Keywords: Literary criticism , Humanities , Drwing , Genetic structuralism , Psychoanalysis.

الملخص: يسعى هذا البحث للنظر في علاقة النقد الأدبي بالعلوم الإنسانية من حيث راهنية هذه العلاقة وحدودها ونتائجها؛ من خلال دراستين أكاديميتين لناقدين مغربيّين؛ حميد لحمداني في علاقته بعلم الاجتماع، وحسن المودن في علاقته بعلم النفس؛ لنرى كيف تمثّل كلّ واحد منهما هذه العلاقة وما مدى استفادته، بوصفه ناقدا، من العلم الذي استمد منه؟ وبأيّ وعي تمّ له ذلك؟ وإلى أي حدّ تُعدّ هذه المناولة منتجة ومفيدة في تطوير النقد؟ مفترضين أنّ تجربة هذين الناقدين في الاستمداد من العلوم الإنسانية تجربة ذات خصوصية فتحت آفاقا للنقد الأدبي المغربي وأسهمت في تميزه ومنحِهِ حضورا بارزا في الساحة العربية.

الكلمات المفاتيح: النقد الأدبي، العلوم الإنسانية، الاستمداد، البنيوية التكوينية، التحليل النفسي.

مقدمة

ينتمي هذا البحث إلى نقد النقد؛ فهو يتناول عملين لأكاديميين مغربيين اشتغلا بمتون أدبية روائية، واستعان كل منهما بأحد العلوم الإنسانية؛ أولهما للناقد حميد لحمداني والآخر للناقد حسن المودن، ويهدف إلى معرفة كيف كانت هذه الاستعانة؟ وعلى أي مستوى تمّت؟ وإلى أيّ حدّ ساعدت الناقديْن على إنتاج معرفة نقدية علمية، وبلورة نقد متزن وفعّال في مقاربة النص مقاربة جادّة ومنتجة.

فهل هذا التفاعل– أو لنقل هذا التصاهر– الحاصل بين النقد والعلوم الإنسانية مما يفيد النقد ويغذيه، ويزيد من قيمته وفعاليته في مقارة النص الأدبي؟ أم أنه نوع من الاستحواذ الذي تمارسه العلوم الإنسانية على النقد، ويشكل تهديدا له بدل أن يكون في صالحه؟ هل استناد النقد الأدبي إلى باقي العلوم الإنسانية ظاهرة غير صحية ينبغي الحذر منها؟ أم أنه مسلّمة تجد مشروعيتها في خاصية التعدّد التي تتيحها قراءة الأثر الأدبي بوصفه كيانا مركبا؟

هذه هي الأسئلة التي يعالجها هذا البحث ، ولا يزعم أنه سيجيب عنها أجوبة حاسمة، فهذا مطمح أكبر من أن يحقّقه جهد كهذا، وإنما يحاول مقاربتها قدر الإمكان سعيا إلى تقديم معرفة بخصوصية النقد المغربي الأكاديمي من خلال نماذج منه، انطلاقا من فرضية أساس مفادها أن علاقة النقد الأدبي بغيره من العلوم الإنسانية في الدراسات الأكاديمية المغربية كانت ذات خصوصية؛ تعبّر عن وعي مبكر، لدى النقاد المغاربة، بحدود هذه العلاقة وطبيعتها.

ولاختبار هذه الفرضية سنعمد أولا إلى تمحيص علاقة النقد بالعلوم الإنسانية عموما، أهي علاقة شرعية ومبرّرة؟ أم أنها غير ذلك؟ ثم إلى تفكيك النصوص النقدية المدروسة لتبيّن نظامها المنهجي، ولنرى كيف تفاعل النقد الأدبي عند كل ناقد من ناقديْنا مع العلم الذي استمد منه؟ هل سيحافظ على طبيعته وقوته ويتعامل مع العلوم الأخرى بوصفها داعمة له، أم ستهيمن عليه هذه العلوم وستسلبه طبيعته وخصوصيته وتحوّله إلى شيء آخر غير النقد؟ وبمعنى آخر أننا سنسائل درجة وعي الناقد المغربي بحدود هذه العلاقة التي يقيمها النقد بالعلوم الإنسانية تصورا وتطبيقا.

1. حدود علاقة النقد الأدبي والعلوم الإنسانية وآفاقها

إن استعصاء الأدب على التعريف، واكتفاء الباحثين والدارسين ببعض التعاريف العامة من قبيل: "الأخذ من كل فن بطرف"، وأنه "تعبير عن الحياة"، يجعل من تحليله وتأويله عملية معقّدة ينوء بحملها الكبير النقد الأدبي؛ ولما كان الوضع على هذا النحو فإن النقد لم يكن له أن ينجز مهمته هذه مكتملة إلا من خلال الانفتاح على مجالات أخرى من أهمها العلوم الإنسانية؛ استمدادا وإفادة من معطياتها.

ظهر – منذ قرون– عدم قدرة النقد على تحقيق استقلاليته؛ فقد كان النقد اليوناني في بداياته مدينا لفلسفة أرسطو، وكذلك كانت طفولة النقد العربي، وبخاصة مع قدامة بن جعفر الذي اعتمد أسس علم المنطق وقواعده في محاولة التقعيد للنقد الشعري العربي. ومع بداية القرن العشرين والتطور الهائل الذي عرفته العلوم الطبيعية والإنسانية سارع النقد للاستمداد منها واعتماد بعض مقولاتها وأسسها المنهجية في محاولة منه للتخلص من الذاتية المبنية على الذوق غير المبرَّر، وللاقتراب من "العلم" الذي بدا وكأنه يتسيّد العالم في تلك المرحلة. وإذا كانت المحاولات الأولى لقياس النقد على العلوم الطبيعية لا سيما مع "تين" و"برونتيير" قد باءت بالفشل، فإن محاولات أخرى لربط النقد بالعلوم الإنسانية قد لاقت ترحيبا واسعا، وعلى رأسها اعتماد "لانسون" على التاريخ التي تحمّس لها أكثر من ناقد عربي في مقدمتهم طه حسين الذي تأثر كذلك بفلسفة ديكارت الشكية في دراسة الشعر العربي.

وإذا كانت مهمة العلوم الإنسانية "تفسير الظواهر العامة التي لها ارتباط بالإنسان"[1]، فإن مصاهرتها للنقد واستمداده منها يبدو مبرّرا ما دام النّقد يشتغل بالأدب، والأدب ظاهرة إنسانية ترتبط بالتعبير عن الحياة الإنسانية بتعقيداتها المختلفة. لكن هذا الاستمداد طرح إشكالا يتعلّق بحدوده ونتائجه؛ فهل يعتمد النقد على هذه العلوم جملة وتفصيلا فيفقد بذلك خصوصيته؟ لا سيما أنه يتقدّم و"كأنه الحقل الطيّع يستجيب لكل علم يدعوه، ويتحفّز لكل منهج يناديه"[2]. أم أنه يأخذ منها على قدر حاجته بحكمة وتبصر؟ وهنا يُطرح سؤال حول كفايات الناقد الذي يستطيع سلك هذا السبيل. أم أن النقد يمكنه أن يستغني عن هذه العلوم كلية ويؤسس (علمه) الخاص بما يضمن له أن يكون كيانا مستقلا؟ وهذا طموح كبير لم يصل إليه النقد لحدّ الآن. إن الأسئلة التي ما فتئت تؤرّق الإنسان حول المعنى والوجود والمآل، يجيب عنها كل مجال بطريقته، أما الأدب فيعالجها عن طريق الخيال، ومن هذا المنطلق يمكن أن يكون للسؤال الأخير ما يبرّره.

1. حسن علي، "**علاقة النقد الأدبي بالعلوم الإنسانية ومدى تأثره بها**"، مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، مج.4، ع.1، يناير 1984م، ص.55.
2. المسدي، "**النقد الأدبي والعلوم الإنسانية**"، السعودية، علامات، ج.6، مج.2، رجب 1413هـ/1992م، ص.23.

لقد تطورت في القرن العشرين علوم عديدة وواكبتها نظريات مختلفة؛ فأسّس فرويد علم التحليل النفسي، وقدم داروين نظرية التطور، وبيّن ماركس العلاقة الجدلية بين الفرد والمجتمع، وجلّى سوسير حقيقة اللغة وأهميتها. وتطوّر الحاسوب وعلومه، وظهر مؤخرا الذكاء الاصطناعي، وبرزت العوالم الافتراضية، فما كان للنقد أن يظل جامدا دون مواكبة هذه التطورات، بل صار في ركبها، وكان متابعا لها، وحاول الاستفادة من كشوفاتها ومعطياتها...

فرض هذا الوضع الجديد على النقد واقعًا جديدًا، فكان من الواجب عليه أن يمدّ جسورا وينفتح على عدد من هذه العلوم الإنسانية كي يضطلع بمهمته في فهم النص وكشف أسراره؛ هذا النص الذي تطوّر بدوره بفعل تطورات العصر نفسها، فظهرت أجناس جديدة اتّضحت محدوديةُ النقد القديم في مقاربتها. هكذا أصبح "الناقد يجد نفسه مضطرا إلى اللجوء إلى البناء الفكري للمؤرخ لمعرفة الأحداث، وإلى البناء الفكري للفيلسوف لاستقاء الأفكار"[3].

وهكذا بدأ النقد ينفتح على عدد من العلوم الإنسانية منها الفلسفة وعلم النفس وعلم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم اللغة وعلم الجمال، "يخضع لقواعد خاصّة كما يخضع كل علم"[4] من هذه العلوم ويستمد قواعده منها، وصار النقاد يعترفون بفضل هذه العلوم عليهم؛ يقول كارلوني وفيلو: "نحن ندين للتحليل النفسي الذي يتجاوز كثيراً، في الوقت الحاضر، نظرية فرويد "البطولية"، ولنقل ذلك بصراحة"[5]. ويرى آخرون أن "الناقد الذي يقنع بجهله في حقل العلاقات التاريخية سرعان ما يضل في أحكامه الأدبية... ولا بد من خلال جهله بالشروط التاريخية، سيخطئ على الدوام في فهم عمل فني معين"[6]. كما حاول بعضهم تبرير هذه الحاجة بكون طبيعة الأدب وجوهره التخييلي لا يمنعان من "أن يكون الأدب مخترقا بخطابات فلسفية أو حتى أن يتغذى عليها، أو على خطابات العلوم الاجتماعية"[7]، بل إن بعض النقاد زعموا أنه "لا يستطيع استبعاد منجزات العلوم الإنسانية من نطاق المعرفة سوى مفهوم عن الحقيقة ضيق جدا"[8].

3. نورثرب فراي، **تشريح النقد**، ترجمة جابر عصفور، الأردن، الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، عمان، 1991، ص.14.

4. أحمد أمين، **النقد الأدبي**، مصر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط3، 1963، ص.2.

5. كارلوني وفيلو، **النقد الأدبي**، ترجمة: كيتي سالم، قطر، وزارة الثّقافة والرياضة، كتاب الدوحة 96، مايو 2019، ص.94.

6. روني ويليك وواوستين وارين، **نظرية الأدب**، ترجمة محيي الدين صبحي، لبنان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1981،2، ص.47.

7. كومبانيون، **لم يصلح الأدب**، ترجمة حسن الطالب، لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2023، ص.81.

8. ويليك ووارين، **نظرية الأدب**، ص.15.

إن الرواية، مثلا، جنس هجين يتضمن عناصر تاريخية ونفسية واجتماعية... صحيح أنها عناصر غير أدبية، ولكن يحقّ أن نتساءل مع كيليطو: ماذا سنفعل بها؟[9]، لا شك أن تحليلها مهم وضروري لفهم العمل الأدبي، وأننا نحتاج في هذا التحليل إلى معرفة بالعلوم الأخرى مثل التاريخ، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وغيرها... يشبّه كيليطو دارس الأدب (الناقد) تشبيها طريفا بشخص متعدّد الحرف (bricoleur)، فهو "لا يملك الأدوات اللازمة لحرفه المتعدّدة فيلجأ إلى التقاط هذه الأدواة أو تلك من ميادين مختلفة"[10] يستعير منها ما يخدم أغراضه هو بوصفه ناقدا دون أن يفقد هذه الصفة لصالح صفة حرفيّ آخر غيره؛ إنه يستعير أدواته من علوم أخرى خارج تخصّصه يأخذ منها "ما يناسب النصوص التي يدرسها والغرض الذي يرمي إليه"[11].

فإذا كان النقد يتوخّى من الأدب كشف حقيقة فردية ترتبط بالأديب وما يكتنف نفسه من مكنونات، فإنه في هذه الحالة سيستمد من علم النفس ما يعينه على تبيّن هذه الحقيقة، ورصد طبيعة الانفعالات والعواطف التي يثيرها النص ومحاولة تفسير الأسباب الثاوية خلفها، وإذا كان يبحث عن العلاقة بين الأدب والمجتمع الذي نشأ فيه أو الذي يتحدث عنه، فسيتقدم له علم الاجتماع بآلياته يعرضها عليه بسخاء لمساعدته على استنطاق الأدب وكشف أسرار علاقته بالسياق التاريخي والاجتماعي الذي يتحرك فيه. وعموما، فإن العلوم التي يستمد منها النقد تتحدّد بحسب العلاقات التي يقيمها النص الأدبي بوصفه مادة اشتغال النقد؛ وهي أربع علاقات على الأقل: "علاقة النص بكاتبه، وعلاقة النص بقارئه، وعلاقة النص بعالم، وعلاقة النص بالنص أي علاقة النص بذاته"[12]، وفي تحليل كل علاقة من هذه العلاقاتً يستمد النقد يد العون من علم أو أكثر من العلوم الإنسانية التي تُعنى بهذه العلاقة وتمتلك من الآليات ما يمكّن من كشف حقيقتها وتحليلها. وبتعبير آخر، فإن الأدب لا ينفصل في بنيته ووظائفه عن أربعة مكونات؛ الذات المبدعة التي هي مصدره، واللغة التي هي مادته، والواقع الثقافي والتاريخي والاجتماعي الذي تبلور فيه، والمتلقي الذي يستهلكه؛ عناصر مختلفة لكيان واحد، و"لهذه الأسباب كان تدخل اللسانيات والبلاغة وعلم الاجتماع وعلم النفس والمنطق حاسما في بلورة المناهج النقدية المتعددة ونظريات الأدب المتباينة"[13].

9. كيليطو وآخرون، **المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية**، المغرب، دار توبقال، البيضاء، ط1، 1986، ص.38.
10. نفسه، ص.38.
11. نفسه، ص.38.
12. صمود حمادي، "**النقد الأدبي والعلوم الإنسانية**"، السعودية، علامات، ج.6، مج.2، رجب 1413هـ/1992م، ص.25.
13. لحمداني، **الفكر النقدي الأدبي المعاصر**، المغرب، مطبعة أنفو، فاس، ط3، 2014، ص.9.

إن ازدهار النقد الأدبي مدين لازدهار العلوم الإنسانية نفسها، واعتماده على هذه العلوم واستمداده منها ضروري لتعزيز الدور المعرفي للممارسة النقدية وتقليص حدة أحكام القيمة غير المبررة، وللدفع بالنقد نحو مزيد من الموضوعية، لكن هذه الاستفادة ينبغي أن "تجيء على قدر معين بحيث أن هذه الصلة لا تتعدى نطاق الإفادة منها إلا بمقدار ما يتيح للناقد نوعا من الإدراك والإيضاح"[14] اللذين يعينانه في إنجاز مهمته إزاء النص، حتى لا يفقد النقد خصوصيته؛ فهذه العلوم حاضرة في النقد، "ولكنها ليست النقد، والناقد ليس عالم الأصوات، أو عالم الاجتماع الأدبي، الناقد طرف رئيسي في معادلة تضم العمل الأدبي والجمهور"[15].

وقد دعا المسدي إلى مراجعة علاقة النقد بالعلوم الإنسانية بغية "توفير المناعة الضرورية للنقد الأدبي حتى لا تنحلّ خصائصه النوعية فيمحى على التدريج رسم هويته المعرفية"[16]، ولكي يحفظ هويته وخصوصيته النوعية، وحتى لا يؤدي وظائف غير وظيفته الأساس، وبمعنى أدق، أن لا يتحول إلى خادم لغيره متناسيا خدمة نفسه وموضوعه.

ورغم هذا التوجس، فإن النقد مضطر لهذه الاستفادة، لكن ينبغي أن تتأسس على حوار علمي وواع مع العلوم المختلفة يأخذ بعين الاعتبار خصوصيتنا الثقافية، وبدون هذا الحوار "ستظل استفادتنا من منجزات العلوم الأخرى طارئة وعابرة"[17]. وسيظل نقدنا عاجزا عن التنظير وصياغة نظرية أدبية تراعي شروطنا الثقافية.

2. حميد لحمداني: استمداد النقد الأدبي من علم الاجتماع

إن علاقة الأدب بمختلف ظواهر الحياة أمر لا جدال فيه، وقد أدرك الأدباء أنفسهم هذه العلاقة؛ وكان من الطبيعي أن يهتم النقد في تفسيره للأدب بها أيضا؛ أي بربط الأدب بما يفسّر وجوده ويمنحه معناه، ومن هنا كانت حاجة النقد الأدبي إلى علم الاجتماع يستعين به في مهمّته. غير أن أحد اتجاهات هذا العلم وقع في مأزق نظرية الانعكاس التي قدّمت رؤية تبسيطية لعلاقة الأدب بالمجتمع وجعلت كلا منهما مرآة تعكس صورة الآخر، ولتجاوز هذا المأزق ظهرت تيارات أخرى من أهمّها البنيوية التكوينية لصاحبها كولدمان، التي أكدت أن العلاقة بين المجتمع والأدب علاقة جدلية فـ"الكاتب لا يتأثر بالمجتمع فقط: إنه يؤثر فيه. والفن ليس مجرّد إعادة صنع الحياة فقط

14. حسن علي، "**علاقة النقد الأدبي بالعلوم الإنسانية ومدى تأثره بها**"، ص.67.
15. شكري غالي، **برج بابل النقد والحداثة الشريدة**، دار الريس، لندن، ط1، 1989، ص.17.
16. المسدي، "**النقد الأدبي والعلوم الإنسانية**"، ص.23.
17. يقطين، **الرواية بين التحليل النفسي والنقد الأدبي حسن المودن نموذجا**، ضمن ضمن كتاب حسن المدن القراءة والتحليل النفسي (مؤلف جماعي)، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط1، 2013، ص.38.

وإنما تكوين لها أيضا"[18]. وقد شكّلت البنيوية التكوينية بمرجعيتها السوسيولوجية المنهجَ الذي اعتمده لحمداني في دراسته التي اختار لها عنوان: "الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، دراسة بنيوية تكوينية"، وهي في أصلها رسالة جامعية بإشراف الدكتور محمد الكتاني وتقديمه، تمّ نشرها فيما بعد عن دار الثقافة عام 1985م.

تكتسي هذه الدراسة أهمية بالغة في تاريخ النقد المغربي الحديث؛ إذ أتت ضمن البحوث الطلائعية في الساحة النقدية العربية والمغربية، وهذا بشهادة المشرف عليها الذي يرى بأنها "عمل جادّ وأنه يقتحم منهجا للدراسة النقدية ما يزال في تجاربه الأولى"[19]، كما وصفها بـ"التجربة الموفقة"[20]. فما الذي يميّزها؟

إذا كان التحليل اللساني يركز على الأنساق والمستويات الداخلية للنص لتفسير التكامل والانسجام والتناظر فيه، فإنه يعزله عن واقعه وواقع مبدعه، مكرّسا نظرية الفن للفن؛ لذلك غاب الاهتمام بعلاقة النص بمحيطه في هذه المقاربة، وكان ذلك مدخلا لانتقادها ووجها من وجوه قصورها، فجاء المنهج البنيوي– التكويني أو السوسيو– بنائي ليملأ هذه الفجوة ويقيم "صلحا" بين المنهج اللغوي والمنهج الاجتماعي، وليعيد التوازن إلى علاقتهما، ولتعزيز الدراسة النصية للأدب بدراسة الوسط الاجتماعي الذي كان سببا في ظهوره. وقد تبلور "هذا المنهج في ضوء التصورات التي قدّمتها بعض الأبحاث التاريخية والاجتماعية التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر، ولم يأخذ صياغته المتكاملة إلا بعد جهود متواصلة قام بها باحثون في حقل علم اجتماع الأدب"[21].

من المعلوم أن الجذور الأولى للمنهج الاجتماعي تعود إلى هيجل الذي ربط بين ظهور الرواية والتحولات الاجتماعية، إلا أن التأسيس الفعلي لهذا المنهج كان على يد لوكاتش الذي بلور مفهوم "سوسيولوجيا الرواية" استنادا إلى النظرية الجدلية التي تفسّر الفن بأنه تعبير مباشر عن الصراعات الاجتماعية القائمة في أي مجتمع، لكنه لم يغفل السمّة الجمالية التي تميّز النصَّ الأدبيّ ولم يقصر التحليل على المضمون الاجتماعي والإيديولوجي، وإنما التفت إلى الجانب الجمالي وأولاه أهمية قصوى معتبرا ذلك خطوة ضرورية لفهم التصور الذي يتبناه الأديب. ثم اكتمل هذا المنهج الجدلي مع لوسيان كولدمان الذي أطلق عليه "البنيوية التكوينية". وأهم ما يميزه إعادة الاعتبار للنص؛ إذ أول مرحلة فيه هي فهم العمل من خلال تحديد بناه الدالة المحايثة، قبل ربطه بباقي البنى الخارجية.

18. ويليك ووارين، **نظرية الأدب**، ص.105.
19. لحمداني، **الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي**، دراسة بنيوية تكوينية، المغرب، دار الثقافة، البيضاء، ط1، 1405هـ/1985م، ص.أ.
20. نفسه، ص.أ.
21. نفسه، ص.10.

وقد كان اختيار لحمداني لهذا المنهج عن قناعة و"وعي عميق منه بضرورة فهم العلاقة بين العمل الفني والواقع"[22]، متمثلا مقولات غولدمان الأساسية، فبدا واعيا بقضية حدود العلاقة بين النقد الأدبي وعلم الاجتماع، إذ ما فتئ يشير إلى الخصوصية الإبداعية للأعمال وصياغتها المجازية التي تميزها عن المضمون الواقعي للوعي الجماعي؛ مما يعطي للعمل الفني نوعا من الاستقلالية النسبية ويحتفظ له بخصائصه الجمالية المميزة[23]. مما يعني أن التحليل يسير فيه وفق مسار مزدوج؛ فمن ناحية يتم التعامل مع النصوص الروائية على أنها عوالم متكاملة قابلة لأن تدرس كوحدة مستقلة، على الأقل في مرحلة أولى من مراحل تطبيق المنهج، ومرد ذلك إلى أن النص الروائي يشكل بالفعل عالما تخيليا مستقلا له قوانينه الخاصة. ومن ناحية أخرى، وبعد استخراج مضمون النص وبنيته العميقة، يتم إدراج هذا المضمون ضمن البنية الفكرية للكاتب، هذه البنية التي تُدمج في بنية أخرى أوسع هي البنية الفكرية للجماعة التي ينتمي إليها المبدع أو يعبر عنها دون أن ينتمي إليها بالضرورة. كما يتم وضع هذه البنية الأخيرة أيضا في إطار الصراع الفكري والاجتماعي العام داخل المجتمع الذي يحتضن الإبداع الروائي المدروس.

وهذا يتناسب تماما مع ما ذهب إليه غولدمان عندما بيّن أن عملية قراءة النص الأدبي هي عملية مزدوجة تتكون من عمليتي الفهم والشرح؛ ففهم النص يتعلق بتلاحمه الداخلي، والشرح يتصل بالبحث عن ذات فردية أو جماعية، وهو يعتقد أن النقاد لا يواجهون في الأعمال الثقافية إلا ذاتا جماعية، والفهم والشرح عملية واحدة ترتبط بزوايا مختلفة النظر[24]. ومما سوّغ هذا النوع من الدراسة ودعا الناقد لطلب يد المساعدة من علم الاجتماع أمور منها:

– أن متن الدراسة (الرواية المغربية) هو تعبير في معظمه عن واقع اجتماعي من خلال رؤى إيديولوجية، فـ"كان لا بد من باحث يرصد أنماط هذا الوعي الإيديولوجي"[25]، ولعل من حظ هذه الدراسة أن اجتمع لها من عناصر التكامل ما لم يجتمع لغيرها، كما أشار إلى ذلك المشرف عليها؛ فعناصرها الثلاثة (المتن والناقد والمجتمع) يؤطرها مجال مكاني واحد هو بلد المغرب، وهذا من شأنه أن يساعد الناقد على إدراك جيد وتحليل أعمق.

22. نفسه، ص: ب.
23. نفسه، ص.12.
24. نبيل راغب، **موسوعة النظريات الأدبية**، مصر، موسوعة النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط1، 2003، ص.366.
25. لحمداني، **الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي**، دراسة بنيوية تكوينية، ص.و.

– أن إحدى أهم الفرضيات التي ينطلق منها النقد هي "اعتبار الإنتاج الأدبي ليس من صنع مبدعه فقط، ولكنه قبل أن يكون كذلك فمضمونه العميق موجود لدى فكر الجماعة التي ينتمي إليها المبدع أو يعبّر عنها"[26]، ودور المبدع ينحصر في إعطاء صورة لهذا الفكر الجماعي وتقديمه في شكل صياغة خيالية تبدو في الظاهر وكأنها جديدة كل الجدة.

– "أن الوصول إلى المضمون الإيديولوجي للأعمال الإبداعية لا يتحقق إلا مرورا بعملية تحليل البناء الشكلي في الإنتاج الإبداعي، ومع ذلك فإنه لا يقف عند هذا الحد مثلما تفعل المناهج البنيوية الحديثة، وإنما ينتقل إلى مستوى الفهم الإيديولوجي والاجتماعي"[27].

وعلى الرغم من هذه المنطلقات الموضوعية فإن الباحث كان صريحا في عدم تخلصه الكلي من تأثير الإيديولوجية في بحثه مقرا إقرارا لا شك فيه أنه ليس في إمكان دراسة نقدية ما –سواء صرّحت بذلك أم لم تصرح– أن تكون خالية من موقف إيديولوجي تجاه ما تنتقد حتى ولو اتخذت مظهر نقد جمالي خالص[28]. وكذلك حال المبدعين؛ فالروائيون مهما حاولوا "فهم من حيث أرادوا أو لم يريدوا أصحاب موقف إيديولوجي بالضرورة"[29]. وللتخفيف من غلواء هذا الميل الإيديولوجي، يركز لحمداني على النص، ويجعله منطلق العملية النقدية فيسعى إلى التعامل معه تعاملا واعيا وجادّا؛ لأن هذا التعامل هو وحده الذي "يمكّن من اكتشاف العلاقات ذات الدلالة على حقيقة الرؤية المتوارية خلف مظاهر النص الروائي"[30].

لقد حاول الناقد جاهدا تبرير حاجته للاستعانة بالسوسيولوجيا في مهمته المتمثلة في تحليل الرواية المغربية، في الشق المتعلق بتحليل الواقع الاجتماعي، وقد أقرّ بهذا الاستمداد وباعتماده "على ما أنجزه المهتمون بعلم الاجتماع والتاريخ ممن درسوا الواقع الاجتماعي المغربي"[31]، ثم أعرب عن ذلك صراحة في موضع آخر بقوله: "قصدنا إلى تقديم تصوّر اجتماعي وتاريخي متكامل مستفيدين مما أنجزه المهتمون بهذا الميدان من الدارسين المتخصصين"[32]. وقد وجدناه يفرد لذلك مبحثا من المدخل شغل قرابة عشرين صفحة عبارة عن خلفية سوسيولوجية للمجتمع المغربي رصد فيها الواقع الاجتماعي

26. نفسه، ص.13.
27. نفسه، ص.14.
28. نفسه، ص.16.
29. نفسه، ص.74.
30. نفسه، ص.16.
31. نفسه، ص.16.
32. نفسه، ص.44.

المغربي قبل الاستعمار وإبّانه، كما تناول فيها الحركة الوطنية وفترة الاستقلال وبعض الاتجاهات الفكرية التي كانت سائدة آنذاك في المجتمع.

واستند في ذلك إلى دراسة الخطيبي التي اعتمد فيها على النظرية الخلدونية والنظرية الماركسية في علم الاجتماع، ثم النظرية التجزيئية الأنطولوجية القائمة على الرؤية السكونية للواقع الاجتماعي. واستطاع من خلال النظرية الماركسية أن يكشف التشكيلة الاجتماعية للمجتمع المغربي انطلاقا من الأسس الاقتصادية.

وبعد أن استعرض معطيات المغرب الاجتماعية والتاريخية تساءل قائلا: "إذا كان هذا هو الوجه التقريبي للواقع الاجتماعي المغربي، فكيف انعكس على الأعمال الروائية، باعتبار أنها عوالم متخيّلة، لا تكتفي بتصوير الواقع، وإنما تعيد صياغته من جديد، ثم تحدّد من خلال ذلك موقفها منه؟[33]، ثم ذكر ما يكشف عن غاية عمله؛ إذ يهدف إلى أن يحلّل هذه الأعمال الروائية لفهم بناها الداخلية، ثم إظهار ركائزها الدالة، ثم بعد ذلك تحديد مواقفها الخاصة من الواقع الاجتماعي، دون إغفال حصر القضايا الاجتماعية التي تعالجها. وهذا، في اعتقاده سيخفّف من ذاتية الناقد ويميل بالنقد جهة العلم والموضوعية، ويجنّبه الإسراف في استعمال الأسلوب الشاعري في النقد الذي يفضي، في رأيه، إلى انتكاسة نحو النقد التأثري والانطباعي[34].

يجزم لحمداني بأن التحليل الذي يركز على الأشكال وحدها ليس ممكنا فيقول: "مهما حاول أي ناقد أن يركز على الأشكال في الدراسة الأدبية، فإنه لن يحصل على بحث خالص في الأشكال، ويعتبر العكس صحيحا أيضا"[35]، وهذا القول منه مبرّر لحاجة الناقد إلى علوم أخرى تساعده في مهمته، والعلم الأساس في حالته هو السوسيولوجيا؛ لذلك ظلت الخلفية السوسيولوجية حاضرة أثناء التحليل، وعدّها مرجعا أساسا في مختلف مراحل بحثه، سواء عند تحديد رؤى الروائيين الاجتماعية أو عند إصدار الأحكام عن إيجابية هذه الرؤى أو سلبيتها.

كما تضمّن المدخل مبحثا بعنوان "علاقة الفن الروائي بالمجتمع"، وكأنّ الباحث يريد أن يقيم مسوغا لاعتماده على المنهج الجدلي، وحاجة النقد الأدبي للاستعانة بهذا المنهج وبمعطيات علم الاجتماع والتاريخ، وهكذا تناول سيرورة تطور الرواية الغربية رابطا ذلك بتطورات المجتمع الغربي نفسه، مُرجعا كل تطور في الرواية شكلا ومضمونا إلى التطور الذي حصل في المجتمع خلال تلك الفترة المعنية بالحديث؛ وقال: "يجب

33. نفسه، ص. 101.
34. نفسه، ص. 35.
35. نفسه، ص. 540.

التأكيد مسبقا على أن الفنّ عموما هو في جميع المراحل التي قطعها كان ولا يزال وطيد الصلة بالمجتمع[36]، بل وزعم أن مهد الرواية الذي هو الملحمة لا تخلو من التعبير عن مضمون اجتماعي.

ويرى أن أسباب ازدهار الرواية في العصر الوسيط، وخصوصا إبان القرن الثاني عشر، تعود إلى تطور الإقطاع نفسه. وقد أشار كذلك إلى تأثر الرواية فيما بعد بمعطيات عصر النهضة في بداية القرن السادس عشر، بما فيه من ظهور الطباعة، ودراسة المؤلفات الإغريقية القديمة، والمعارف الأدبية الأجنبية. كما شكك في تلك الآراء التي تدعي بأن الرواية الغربية لم تهتم بالمجتمع إلا بعد القرن الثامن عشر، معيدا النظر فيها مقرا بأن الرواية "لم يحدث في تاريخها الطويل أن كانت منفصلة كل الانفصال عن الواقع الاجتماعي الذي نشأت فيه، كما ظلت على الدوام تعكس بشكل من الأشكال هذا الواقع"[37]، ولا يخفى ما في هذا الحكم من تعميم يفتقر إلى أساس مضبوط في غياب استقراء كامل، وإنما يعبّر عن تحمّس الناقد الزائد لإثبات جدوى هذا المنهج وتبرير لجوئه للاستعانة بعلم الاجتماع في دراسته، وهذا ما ظهر أيضا من خلال هذا الحكم الذي جاء فيه أن ما حصل في الرواية من تطور ملموس في القرن العشرين، إنما هو، في رأيه، "نتيجة من نتائج تطور النظام الاجتماعي الأوربي، وتحوله إلى نظام إنتاجي استهلاكي"[38].

والجدير بالتنويه أن الباحث، وإن كان يؤمن بجدوى النظرية الماركسية ويتحمّس لها، فإنه لا يأخذها على إطلاقها، وإنما يبدي وعيا بوجود بعض الفوارق بين المجتمع المغربي موضوع الدراسة والمجتمعات الغربية؛ لذلك يقرّ بضرورة إغناء هذه النظرية العلمية بمعطيات جديدة تقتضيها خصوصية المجتمع المغربي بحكم انتمائه إلى عالم يخالف في بنيته تركيبات المجتمعات الأوربية. إنه يبدي تحفظا بيّنا من تطبيق المنهج الجدلي بجميع تفاصيله، وهذا الوعي مطلوب في التعامل مع هذه المناهج والعلوم، مما يكشف عن وعي هذا الناقد بحدود عمله. فليس عيبا أن يقترض النقد العربي من نظيره الغربي، ما دام لم يؤسس مناهجه الخاصة التي تتلاءم مع ثقافته، وإنما المسألة تبقى "مسألة حسن اختيار ما هو أصلح للتطبيق على الواقع الذي يستضيفه"[39].

وتمثل هذا الوعي في كونه يتّخذ من البنية الدالة للرواية مدخلا أساسا، ومنه يحدّد رؤية الكاتب للواقع الاجتماعي، ثم يقارن هذه الرؤية مع ما حدّده في المدخل

36. نفسه، ص. 47.
37. نفسه، ص. 76.
38. نفسه، ص. 65.
39. فزازي، "**وضعية النقد الأدبي في المغرب: مرحلة السبعينات**"، المغرب، علامات في النقد، المجلد التاسع، الجزء 35، ذو القعدة 1420هـ، ص. 121.

السيوسيولوجي، والنتيجة ليس مطلوبا أن تكون متطابقة دائما كما في نظرية الانعكاس، بل قد تكون مخالفة مما يعبر حينها عما يسميه الباحث "الوعي الخاطئ بالواقع الاجتماعي". وبهذه الطريقة ينجو من الوقوع في شرك نظرية الانعكاس المختزلة. هكذا تنكشف استفادة الناقد من معطيات السوسيولوجيا؛ إذ لا تمثل غاية بقدر ما تشكل وسيلة. بمعنى أن الناقد يلجأ للاستعانة بها في الخطوة الثانية من التحليل وهي الشرح؛ فالفهم وحده لا يكفي لإضاءة جانب مهم من العمل الأدبي، وهو ذلك المتعلق بالوسط الذي كان علّة في إنتاجه. وهذه المناولة تحتاج لجهد الناقد وتبصّره؛ فسؤال العلاقة بين النص والمجتمع ليس بسيطا، والإجابة عنه ليست هينة، فهو لا يزال يطرح إشكالات عديدة لم يستطع النقد بمختلف مناهجه الحسم فيها.

إن هذه المناولة لم تسلم من سهام النقد، ومنها الوقوع في الانتقائية؛ إذ لا تختار إلا الأعمال المحتوية على بعد اجتماعي وتقصي ما سواها مما يقتصر على الهموم الذاتية. كما اعترف الناقد نفسه بمحدوديتها؛ إذ يقر بأن الدراسة المتخصصة مهما بلغت لا تُوصل إلا إلى جزء من الحقيقة[40]. ولعل أبرز نواقصها التي سجلها بخصوصها بيير زيما "تكمن في مجملها في عجزها عن تحليل ونقد النص الأدبي على المستوى اللساني: الدلالي والتركيبي والسردي"[41]، وهذا محلّ نظر.

3. حسن المودن: استعانة النقد الأدبي بالتحليل النفسي

يبدو الناقد المغربي حسن المودن في دراسته "لا وعي النص في روايات الطيب صالح قراءة من منظور التحليل النفسي"[42] التي أنجزها بإشراف الأستاذ الناقد محمد برادة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط سنة 1996، وقدمها لنيل دبلوم الدراسات العليا، واعيا تماما بأنه يقدم على الاستعانة بعلم من العلوم الإنسانية ذي طبيعة مختلفة عن علم الأدب الذي هو مجال بحثه، ويتضح هذا الوعي في المقدمة النظرية التي افتتح بها دراسته، ومن خلال المقتبسة التي تصدّرت هذه المقدمة، وهي للناقد كرستيان متز، جاء فيها "من المحتمل جدا أن الاكتشاف الفرويدي يعمّ بسعته وشموليته كلّ حقول المعرفة، لكن بشرط أن نعرفَ كيف نربطه بشكل ملائم بالمعطيات والمقتضيات الخاصة بكل حقل من هذه الحقول".

40. لحمداني، **الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي**، دراسة بنيوية تكوينية، ص.196.
41. زيما، **النقد الاجتماعي نحو علم اجتماع للنص الأدبي**، ترجمة عايدة لطفي، مصر، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1991، ص.88.
42. طبعت هذه الدراسة سنة 2002 (أي بعد مرور قرابة سبع سنوات على مناقشتها).

تناولت هذه المقتبسة قضيتين متلازمتين؛ أولاهما تتعلق بصلاحية علم النفس ليساعد في دراسة الأدب ما دام يعمّ بسعته كل حقول المعرفة، والأدب من هذه الحقول. والقضية الأخرى تتعلق بشرط تنزيل هذا العلم والاستفادة منه، وهي مراعاة خصوصية كل حقل عند ربطه بعلم النفس حتى يكون الربط ملائما. وهذا ما بسطه المودن فيما بعد؛ إذ بيّن أن ذلك كان هم الجمعية النفسانية الدولية سنة 1908م التي أكدت بالفعل أن هدفها هو تعميق التحليل النفسي وتطويره؛ سواء في الطبّ أم في العلوم الإنسانية، وهذه القضية، في رأي المودن، ممكنة مادام التحليل النفسي محاولة لتفسير الإنسان، والفن والأدب مما يتعلق بهذا الأخير.

غير أنّ ما أثار انتباه المودن هو لماذا التركيز في انفتاح علم النفس على الأدب بالضبط من بين باقي العلوم الإنسانية الأخرى؟ والجواب يمكن التماسه في أمرين: أولهما علاقة المؤلف بالشخصية الأدبية، إذ كان هناك خلط بين الشخصية التخييلية والمؤلف الواقعي، والآخر هو أن فرويد كان يحلّل الأحلام المخيلة (الأدبية) على أنها أحلام واقعية معتبرا أن الأدب تشخيص لواقع نفسي.

وثمة تفسير آخر يعدّه المودن أكثر راهنية، هو تفسير جان بيلمان–نويل؛ الذي يرى بأنه عن طريق الأدب يمكن للإنسان أن يسائل نفسه وقدره الكوني وتاريخه واشتغاله الاجتماعي والذهني. ولغة الأدب لغة مختلفة لا تقول بكيفية حقيقية ما يبدو أنها تقوله، فهي تنقل رسالة متعدّدة المعاني، وهذا يعني أن الأدب يحتوي في داخله على شيء من اللاوعي. ومن هنا قسم بيلمان اللغات إلى ثلاثة أصناف: لغة التواصل الخاضعة للمنطق، ولغة الطفل والحالم والأحمق وهي لغة اللاوعي، ثم لغة الأدب وتجمع بين اللغتين: لغة الوعي ولغة اللاوعي.

لقد عمل بيلمان على إبراز القاسم المشترك بين الأدب والتحليل النفسي والذي يسوغ العلاقة بينهما؛ إذ عدّ الأدب والتحليل النفسي نوعين من التفسير وطريقتين للقراءة، إنهما قراءتان تقرآن الإنسان في حياته اليومية وداخل قدره التاريخي. وهذا الجواب في نظر المودن قويّ ومقنع، مما يعني أنه أقدم على هذه الدراسة بعدما آمن بجدوى الاستعانة بالتحليل النفسي في مقاربة الأدب، وكان على وعي تام بذلك.

وكي يبرهن المودن على هذه القناعة ويبرّرها عمد إلى تناول علاقة فرويد نفسه بالأدب؛ فذكر أنه كان مولعا بقراءة كتب كبار الأدباء أمثال شكسبير وسرفانتيس وفلوبير، وموليير، ودوستويفسكي... وقد كان حريصا في قراءته على تذوق الخطاب المضبوط للكاتب مثلما كان حريصا على سماع أقوال المريض كاملة. ويُشار إلى أن ميله للتراجيديا الإغريقية والأدب الألماني كان وراء اكتشافه "عقدة أوديب"، وذكر له نصا يعترف فيه

بأنّ الشعراء والروائيين حلفاءُ أوفياءُ للمحلّل النفسي، ويدعو إلى تقدير شهادتهم حقّ قدرها، ويعتبرهم معلميه في معرفة النفس. وقد أوضح المودن أن اهتمام فرويد بالأدب كان على ثلاثة مستويات، كما حددها جان لوي بودري، وهي: الشخصية المبدعة، والأثر الإبداعي، والقارئ. ويعدّ المودن ذلك تأسيسا لتاريخ التحليل النفسي الذي سيتبلور فيما بعد؛ فقد عني المحللون النفسيون بعد موت فرويد بالمؤلف، ثم انتقلوا للاهتمام بالعمل الأدبي مع ظهور اللسانيات والنظريات البنيوية، ثم انتهى الأمر إلى الاهتمام بالقارئ بعد انتشار نظريات القراءة والتداوليات.

وقد استعرض الباحث خصائص النقد النفسي البيوغرافي وأكد محدوديته ووصفه بالاتجاه التقليدي الذي يركز على "لاوعي المؤلف"، ورغم أن شارل مورون، وهو أحد أبرز رواد النقد النفسي، منح أهمية قصوى للأثر الأدبي، فإنه حسب المودن، لم يخرج عن هذا الاتجاه التقليدي؛ إذ ركز هو الآخر على إبراز الأسطورة الشخصية للمؤلف. وهذا الاتجاه لم يكن ليرضي المودن، مما دفعه للتفكير في مقاربة أخرى تركز على المكتوب أكثر من تركيزها على كاتبه.

إن هذه المقدمات كانت عبارة عن مسوّغات قدمها الباحث ليؤكد من خلالها الإقرار بمشروعية العلاقة بين التحليل النفسي والأدب وضرورتها مبرّرا ذلك بقوله: "مادام الأول يسلّم مبدئيا بأنه لا يمكن أن يكون خطابا حول الحقيقة إلا إذا سلك طرق اللغة وليس طرق الفكر: فالحقيقة تتكلم وتتخفّى في لعبة الدال"[43]. وجدوى هذه العلاقة يعترف بها عدد من نقاد الأدب أمثال ويليك ووارين اللذين يقرّان بأن "علم النفس يستطيع أن ينير جوانب عملية الإبداع"[44].

لقد أفرزت النقاشات المنبثقة عن إعادة قراءة فرويد في ظل المستجدات التي عرفتها النظرية الأدبية واللسانيات إعادة النظر في مفهومين أساسيين في التحليل النفسي، وهما مفهوم "اللاوعي" أو "نظرية الدال" مع جان لاكان الذي وضع أسسا شكلانية مغايرة للتوجه الشكلاني الذي أسسه دوسوسير، ومفهوم "النص" الذي تبلور مع النظريات الأدبية الجديدة؛ إذ لم يعد النص "سجين الشروط الجمالية التقليدية التي كانت تجعل من الانسجام والتناسق العاملين الأساسيين في الحفاظ على وحدة النص"[45]. فتم تفكيك النص إلى وحدات ومستويات، وصار يبطن الازدواج والتعدّد والتناقض ومعناه متعدد يقوم مثل لعبة متعددة الأبعاد والزوايا.

43. المودن، **لا وعي النص في روايات الطيب صالح قراءة من منظور التحليل النفسي**، المغرب، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2002، ص.30.
44. ويليك و وارين: **نظرية الأدب**، ص.94.
45. المودن، **لا وعي النص**، ص.32.

يرى المودن أن النص، في إطار هذا المنعطف، لم يعد يخضع فقط لإواليات الوعي، "بل تتضافر إواليات الوعي وإواليات اللاوعي قصد تحديد إحداثيات النص ورسم تخومه. فكلما اقترب النص من مستوى اللاوعي إلا وتحطّم مع ذلك مبدأ الانتظام والمعقولية، واستبدل النص الخطي المتصل والمتجانس بنص مليء بالشروخ والانعراجات"[46]، وقد صنف ضمن تيار "اللاوعي" هذا عددا من الروايات العربية، وهي بعض روايات نجيب محفوظ وروايات الطيب صالح وجبرا إبراهيم جبرا وغالب هلسا وهاني الراهب... مشيرا إلى أن ذلك لم يتأت إلا بعد التحرر من إكراهات الخطابات الإيديولوجية والأدبية العاملة تحت إمرة الوعي. وهذا الإطار الفكري الجديد هو الذي مهّد لظهور مقاربة نفسانية جديدة مع بيلمان والتي يسميها "التحليل النصي".

إن المنهج الجديد الذي وضعه بيلمان منذ 1970 يقوم على فرضية أساسية هي "لاوعي النص"، وهي، في رأي المودن، وحدها الكفيلة بإحداث تحوّل في النقد النفسي من الاهتمام بلاوعي الكاتب إلى التركيز على لاوعي النص. وهذه القراءة "تقتضي أن نضع جانبا الإنسان الكاتب فلا نهتم به، وأن ننطلق من أن كل نص أدبي يكون مخترقا من طرف خطاب لاواع يمكن وصف عمله الذي يتحقّق داخل النص"[47]. فالتحليل النفسي في هذه المقاربة الجديدة مفيد للنقد الأدبي، ؛ يمده بيد العون، ويساعد القراءة النقدية على إنتاج تام لحقيقة الخطاب الأدبي وعلى تعيين بعد جديد للحقل الجمالي وعلى إسماع كلام آخر، ذلك أن الأدب لا يحدثنا فقط عن الآخرين بل وعن الآخر فينا. وهذا ما دفع المودن إلى تبني "التحليل النصي" واعتماد أهم مبادئه، وهي "إبعاد الكاتب والإنصات إلى النص وتوريطه الذات القارئة في عملية القراءة"[48].

لا يحيل النص الأدبي في منظور "لاوعي النص"، إلا على ذاته، غير أن المودن يشير إلى أن ذلك لا يعني البقاء بدون ذات، ولكن "التحليل النصي" ينفلت من هذا المأزق باهتمامه بالعمل: عمل لاوعي النص. وهذه المقاربة لم تسلم من سهام النقد، وهي في رأي المودن، بحاجة إلى التطوير وإعادة النظر، ويسائلها من خلال سؤالين: هل يمكننا اعتبار "لاوعي النص" مفهوما حقيقيا وإجرائيا؟ ثم كيف السبيل إلى إبراز لاوعي النص؟ مما يدل على أن الباحث لا يساكن الجاهز، ولا يسلّم بكل ما قيل، وإنما يناوشه ويسائله، ويحمل هم تطويره وإغنائه، وهي مؤشرات دالة أكدتها اجتهادات المودن في مجال التحليل النفسي الذي اتخذ منه مجال تخصص له، حتى أصبح مرجعا له في النقد العربي الراهن.

46. نفسه، ص.33.
47. نفسه، ص.34.
48. نفسه، ص.43.

اقتنع المودن بالمقاربة التحليل نفسية التي جاء بها بيلمان، مما جعله يبني دراسته لروايات الطيب صالح على افتراض أساس هو أن المنهج النفسي الذي يهتم بلاوعي النص (التحليل النصي) هو المؤهل لتأسيس مقاربة يكون موضوعها هو الكتابة لا الكاتب، مادام يركز اهتمامه على جسد النص الأدبي وبنياته النصية والجمالية، محاولا فهم الكيفية التي يتخلّل بها اللاوعي بنياته[49]. وهذه الفرضية هي نتيجة متولّدة عن قناعة المودن بضرورة تأسيس مقاربة نقدية يتآزر فيها التحليل النفسي والنظريات النصية، داعيا إلى التفكير في الكيفية التي تمكّن من تحويل مفاهيم التحليل النفسي إلى أدوات إجرائية في قراءة النص الأدبي، وكذا في السبيل إلى تشغيل مفاهيم النظريات اللسانية والنصية والتلفظية من منظور التحليل النفسي[50].

إن التحولات التي عرفتها الكتابة الروائية العربية وجعلت منها كتابة إشكالية ومعقدة ذات مستويات متعدّدة تقوم على مفاهيم جديدة وتخييل سردي يختلط فيه الواقعي بغير الواقعي، ويتناول الذاتي والجماعي، ويقيم جماليته على شعريات جديدة تسمح بتدفق خزان اللاوعي فيه، فرضت مقاربة النص الأدبي بأدوات جديدة، شكّل فيها التحليل النفسي، وهو الذي يسمح "بأن يجمع عناصر قد تبدو متناثرة"[51]، بمفاهيمه وعلى رأسها "لاوعي الكتابة" مدخلا ملائما يساعد الناقد على إضاءة عتمات هذا النص ونتوءاته وظلاله، وهذا ما أكده المودن وآمن به، وجعله خاتمة دراسته؛ إذ قال مقررا: "إن الكتابة بهذا المفهوم تفرض نقدا يأتي كشفا وتغلغلا إلى الأعماق، ومن هنا أهمية منظور التحليل النفسي، فهو يمنح الكتابة بعدا آخر وينظر إليها في حيويتها وتكونها واشتغالها..."[52].

دافع المودن في دراسته عن العلاقة بين التحليل النفسي والنقد الأدبي، ومشروعية استفادة الأخير من الأول، وقد ورد الاقتباس في خاتمة بحثه ليرد العجز على الصدر بالنسبة لاقتباس الافتتاح، وهو مأخوذ من كتاب "التحليل النفسي للأدب" لبيلمان فيه: "فلولا اعترافنا بجدوى التحليل التفسي، وبفضله من جهة أخرى، لبقي تثمين أصالة ما هو أدبي عملية شاقة"، مما يؤكد وضوح رأي المودن في هذه القضية، دون أي توجس، مثل ذلك الذي عبّر عنه يقطين عندما ذهب إلى أن هذا التوجه في دراسة الأدب ونقده يظل محفوفا بالكثير من المشاكل المعرفية والمنهجية[53]. لقد آمن المودن بأهمية استمداد

49. نفسه، ص.42.
50. نفسه، ص.42.
51. كارلوني وفيلو: **النقد الأدبي**، ص.97.
52. المودن، **لا وعي النص**، ص.377.
53. يقطين، **الرواية بين التحليل النفسي والنقد الأدبي حسن المودن نموذجا**، ص.37.

النقد من التحليل النفسي وظل يدندن حول ذلك مختطا لنفسه طريقا خاصا، وصفه الناقد العوفي بـ"مركَب النقد الوعر"[54]، مؤثْرا قلقَ البحث وتعبَه، مستفيدا من بيلمان الذي مهدتْ دراساتُه الطريقَ "ليصبح النصّ الأدبي هو بؤرة التحليل"[55].

وقد حدّد برادة أهمية هذه المناولة في إنجازين مهمين[56]:

– الأول هو تخليص النقد الأدبي النفساني من القيود التي كانت تحوّل النص إلى ذات مطابقة لذات الكاتب وتتخذ منه وسيلة لتحليل ومعرفة لاوعي الكاتب وعقده؛

– الآخر هو إبراز أهمية العناصر المختلفة المكونة للنص الإبداعي، من دوال وأخيلة ولغات وعلائق سيميائية تصبّ جميعُها في لاوعي هو بمثابة شريحة من نص واسع، قد يحيلنا عند التأويل والمقارنة إلى لاوعي جماعي يتكون من طبقات المتخيل الجمعي.

إن الأعمال النقدية لا تكتسب جدارتها ووزنها من قيمة المتون التي تشتغل بها فقط، وإنما من خلال الشجاعة البحثية لصاحبها ومتانة بنائها وقوتها التحليلية ووضوحها المنهجي، ونشدانها الجِدّة؛ لذلك فإن أهمية دراسة المودن لروايات الطيب صالح لا يعود تميّزها إلى قامة هذا الرِوائي فقط، و"إنما أيضا، وبالأساس، إلى المغامرة التي خاضها الباحث المجتهد حسن المودن، مجربا منهجا ينحدر من صلب التحليل النفسي الفرويدي"[57].

لم يكن التحليل النفسي ليحل محلّ النقد الأدبي، وإنما ليكون له عونا وسندا يمده بآليات ومفاهيم مسعفة في مقاربة النص الأدبي الذي يشكل ظاهرة معقدة، وهذا ما عبر عنه أحد أعمدة هذا الاتجاه شارل مرون بقوله: "إن النقد النفسي يدرك أنه جزئي وهو يريد أن يندرج في نقد شمولي لا أن يحلّ محله"[58]، بل يقتصر دوره على مدّ يد العون لتعميق فهمنا للنص من خلال الكشف عن علاقات وبنيات مخبوءة لم ينتبه لها غيره.

لقد أبدى المودن منذ بدايته النقدية ميلا إلى النص وتحيّزا إلى الإبداع، وتوجّسا من صفة "العلمية" غير الناضجة في النقد، وقد اتضح من خلال أعماله المتراكمة أنه يدعم هذا الاتجاه ويثمّنه ويتبناه، وهذا ما ذكّر به وطبقه في واحد من كتبه خصصه لدراسة الرواية العربية حيث قال: "النصّ هو الذي يفرض منهجَ قراءته وزاويةَ مقاربته

54. العوفي، **جدل التحليل النصي، والتحليل النفسي**، ضمن حسن المودن القراءة والتحليل النفسي، ص.17.
55. برادة، **توسيع آفاق القراءة والتأويل**، ضمن حسن المودن القراءة والتحليل النفسي، ص.13.
56. نفسه، ص–ص.13 – 14.
57. نفسه، ص.13.
58. القاضي، "**النقد الأدبي والعلوم الإنسانية**"، علامات، السعودية، ج.6، مج.2، رجب 1413هـ/1992م، ص.33.

بالطريقة التي تجعل المنهج يبدو وكأنه لا يطلب الاستقرار، ويقوم في كل مرة بفتح الطريق أمام احتمالات جديدة، ويتقدم بعيدا عن المعيارية والإسقاط والتعسف، وقريبا من النص الأدبي بالشكل الذي يجعل التخييل عنصرا مشتركا بين الكتابة والقراءة"[59]، وهو أيضا ما أكّده في آخر إنتاجاته النقدية[60]؛ إذ يتبنى طرح الناقد النفساني الفرنسي بيير بيار ويلحّ على حاجة النقد العربي إلى تخييل نظري يدخل التخييل في قلب النظرية الأدبية ويجعل الدراسة مزدوجة؛ تخييلية ونقدية في الآن نفسه. مما يعني أن المودن ظل وفيا لمنهج التحليل النفسي مؤمنا بجدواه يتعامل معه بمرونة بعيدا عن الصرامة المنهجية، وبعيدا عن تلك القراءة الإسقاطية وما فيها من تعسّف وإقصاء للجوانب الشكلية والجمالية في النص الأدبي التي هي أساس أدبيته.

صحيح أنه "لا مراء في أن النقد له بعض من صفات الفن"[61]، لكن هذا الاتجاه في النقد الذي يريد أن يجعله فنّا ألا يمكن أن يكون انتكاسة جديدة نحو الذاتية والانطباعية التي أراد النقد في البداية التخلص منها فلجأ إلى الاستمداد من العلوم الإنسانية بحثا عن الموضوعية و"العلمية"؟ ثم إن هذا الميل للنقد نحو الأدبية، وإن كان سيحدّ من صرامة النقد وتقريرية أسلوبه وسيسهم في توسيع دائرة قرائه، أليس من المحتمل أن يُدخله في مقارنة مع الأدب الذي يشتغل به، ولا شك أن التفوق سيكون للأدب لأنه هو الأصل، والنقد تابع وهامش؟ أو أن يجعله يذوب في الأدب؟

هذا إشكال نطرحه للتأمل، وإلا فإنّ المقام لا يتيح الجواب عنه. فالنقد لا ينبغي أن يختلط بغيره، ومهمة الناقد يجب أن تبقى محفوظة في المجتمع إذ لا يستطيع غيره أن يؤديها عنه؛ فـ"أن نمارس النقد معناه أن نشارك في دورة الحياة لثقافتنا"[62]، وغياب النقد كيانا مستقلا معناه غياب جزء من الثقافة. والنقد عندما يبدأ في التخلي عن طبيعته ويريد أن يكون فنا فإنه "يحتوي على كثير من الالتباس"(كارلوني وفيلو، ص: 6)، مما قد يشكّك في قيمته واستقلال كيانه.

59.المودن، **الرواية والتحليل النصي، قراءات من منظور التحليل النفسي**، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2009، ص.8.

60.المودن، **من قال إن الناقد قد مات؟ ضد بارت، ماكدونالد، مانغينو**، إيطاليا، منشورات المتوسط، ميلانو، 2024، ص.

61.فراي، **تشريح النقد**، ص.3.

62.العيد، **في معرفة النص دراسات في النقد الأدبي**، لبنان، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1985، ص.5.

خاتمة

إن النقد الأدبي ما دام يتعامل مع نص مركب تتداخل فيه مركبات من مجالات مختلفة لا يمكنه أن يستقل بأدواته، لذا فإنه يعوّل على علوم إنسانية أخرى كي تمده ببعض وسائلها؛ فهو مجبر بأن يتكئ على علم اللغة وعلم النفس وعلم الاجتماع... واليوم مطالب بأن يفكر في علاقته بجدّ مع الذكاء الاصطناعي وعلوم الحوسبة، والتقنية الحديثة... فعلى النقاد أن يكونوا على وعي بعلاقات النقد؛ فيخطوا له حدوده المحصنة، ويرسموا له تخومه التي يمكنه أن يشتركها مع غيره من المجالات دون أن يذوب فيها..

لقد أضحى الانفتاح على العلوم الإنسانية ضرورة حتمية يفرضها منطق التطور الذي يقتضي انفتاح العلوم على بعضها ضمن ما بات يعرف بـ"تكامل العلوم"، وقد أدى هذا الانفتاح إلى إفراز حصيلة نقدية زاخرة لا سيما في المشاريع النقدية الأكاديمية الأولى لنقادنا المغاربة، وإن تفاوتت هذه الحصيلة كما وكيفا، وتباينت على مستوى الاختيارات والقناعات، لكنها فتحت آفاقا جديدة أمام هؤلاء النقاد أنفسهم وكانت الدافع وراء تطوير مشاريعهم بحيث شكل كل واحد من الناقدين المدروسين علامة نقدية بارزة، وكذا أمام باقي النقاد المغاربة والعرب على حدّ سواء.

إن النقد، وهو يستمد من باقي العلوم الإنسانية ويعتمد على فتوحاتها، لم يستطع التخلص من التحيّز لصالح عنصر من عناصر الأدب على جانب باقي العناصر؛ فغالبا ما نجد اهتماما بأحد أطراف الأدب وإهمال أطراف أخرى وذلك بحسب ناحية اهتمام العلم الذي يستند إليه، وهذه إحدى مزالق هذه العلاقة؛ لذلك فمن حقّ الأدب أن ينادي بنقد يكون فيه "الأدب" هو الغاية والوسيلة في الآن نفسه.

وتحقيق هذه المعادلة رهين بوجود نقاد أكفاء قادرين على الانفتاح الواعي على هذه العلوم ومناهجها، وتطويع آلياتها ومفاهيمها لصالح مقاربة النص الأدبي في مختلف تجلياته؛ يستمدون منها ما يفيد النقد الأدبي، ويصهرونه في بوثقته حتى يغدو جزءا منه، وكي يظل النقد محافظا على طبيعته وخصوصيته ذات الصلة الوثيقة بالأدب. أما أن نأخذ منها جملة وتفصيلا على غير هدي فإن ذلك مما يجني على النقد ويحوله إلى شيء آخر. ويبقى سؤال العلاقة بين النقد الأدبي والعلوم الإنسانية سؤالا مفتوحا يثير كثيرا من النقاشات والقضايا المنهجية، تزداد تعقيدا في ظل بروز علوم جديدة تفرض على النقد ضرورة التعامل معها.

لائحة المصادر والمراجع

أحمد أمين، **النقد الأدبي**، مصر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط3، 1963.

بيير زيما، **النقد الاجتماعي نحو علم اجتماع للنص الأدبي**، ترجمة عايدة لطفي، مصر، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1991.

جماعة مؤلفين (ابراهيم أولحيان، محمد برادة، سعيد يقطين، نجيب العوفي، محمد الداهي)، **حسن المودن القراءة والتحليل النفسي**، المغرب، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط1، 2013.

حسن علي عبد الخالق، "**علاقة النقد الأدبي بالعلوم الإنسانية ومدى تأثره بها**"، مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، مج.4، ع.1، يناير 1984م.

روني ويليك وواوستين وارين، **نظرية الأدب**، ترجمة محيي الدين صبحي، لبنان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1981.

شكري غالي، **برج بابل النقد والحداثة الشريدة**، دار الريس، لندن، ط1، 1989.

صمود حمادي، "**النقد الأدبي والعلوم الإنسانية**"، السعودية، علامات، ج.6، مج.2، رجب 1413هـ/1992م.

فزازي عبد السلام، "**وضعية النقد الأدبي في المغرب: مرحلة السبعينات**"، المغرب، علامات في النقد، المجلد التاسع، الجزء 35، ذو القعدة 1420هـ.

القاضي محمد، "**النقد الأدبي والعلوم الإنسانية**"، علامات، السعودية، ج.6، مج.2، رجب 1413هـ/1992م.

كارلوني وفيلو، **النقد الأدبي**، ترجمة: كيتي سالم، قطر، وزارة الثّقافة والرياضة، كتاب الدوحة 96، مايو 2019.

كومبانيون أنطوان، **لم يصلح الأدب**، ترجمة حسن الطالب، لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2023.

كيليطو عبد الفتاح وآخرون، **المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية**، المغرب، دار توبقال، البيضاء، ط1، 1986.

لحمداني حميد، **الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي**، دراسة بنيوية تكوينية، المغرب، دار الثقافة، البيضاء، ط1، 1405هـ/1985م.

لحمداني حميد، **الفكر النقدي الأدبي المعاصر**، المغرب، مطبعة أنفو، فاس، ط3، 2014.

المسدي عبد السلام، "**النقد الأدبي والعلوم الإنسانية**"، السعودية، علامات، ج.6، مج.2، رجب 1413هـ/1992م.

المودن حسن، **الرواية والتحليل النصي، قراءات من منظور التحليل النفسي**، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2009.

المودن حسن، **لا وعي النص في روايات الطيب صالح قراءة من منظور التحليل النفسي**، المغرب، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2002.

المودن حسن، **من قال إن الناقد قد مات؟ ضد بارت، ماكدونالد، مانغينو**، إيطاليا، منشورات المتوسط، ميلانو، 2024.

نبيل راغب، **موسوعة النظريات الأدبية**، مصر، موسوعة النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط1، 2003.

نورثرب فراي، **تشريح النقد**، ترجمة جابر عصفور، الأردن، الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، عمان، 1991.

يمنى العيد، **في معرفة النص دراسات في النقد الأدبي**، لبنان، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1985.